محاضرات في نظرية الأدب

الدكتور خليفي حاج أحمد

نظرية الانعكاس *

تمهيد: .

في القرن التاسع عشر ظهر أدب جديد اصطلح على تسميته بالادب الطبيعي والأدب الواقعي ، وقد جاء هذا الأدب نتاجا للتقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والاجتماعي .. الخ.
وبظهور هذا الادب الجديد ظهرت محاولات عديدة تربط بين الأدب والحياة أو البيئة أو الوسط أو المحيط أو الواقع أو الظروف الاجتماعية ، على ما في هذه العبارات من تباين ، ولعل أهم تلك المحاولات هي المحاولة التي قام بها «هيبوليت تين في مقدمة كتابه « تاريخ الادب الانجليزي الذي نشر عام 1863 والتي لقيت اهتماما من قبل النقاد والمفكرين . ويرى تين أن هناك ثلاثة عوامل تؤثر في الأدب :

أ- الجنس أو العرق ، أو النوع : ويقصد به الخصائص القومية إذ يرى أن أدب أمة ما يختلف عن أدب أمة أخرى وهذا يعود الى تباين الخصائص القومية التي تعني لديه تأثير المناخ والتربة والحوادث الجسام والدوافع الغريزية والعناصر الوراثية والنزعات الدفينة والعادات العدائية والملامح الجسدية .. الخ

ب - البيئة : فالانسان في بيئته خاضع لأوضاع حتمية، هي التي تتحكم بالادب والحياة العقلية، فقد كان تين مومنا بحتمية البيئة (فالمناخ في انجلترا مثلا يؤثر في تشكيل المزاج للفرد الانجليزي و بالتالي يؤثر في الأدب)يؤكد تأثير المناخ في المزاج الإنساني

ج – الزمن ، أو اللحظة التاريخية : وهو ما يجعل مفهوم البيئة متحركا وروح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريخ التراث وربما يعنى به ما عبر شاعر عربي قديم بقوله « لكل زمان دولة ورجال »

ويقرر «تين » أن الفن جوهر التاريخ وخلاصته وهو بالضرورة بعبر عن الحقيقة التاريخية ، حقيقة الانسان في زمن معين ومكان معين . ان الاعمال وثائق وآثار والازمان تتركز في الأعمال العظيمة .

ولعل أهم نقد وجه الى « هيبوليت تين » كان من استاذه (سانت بيف الذي ابدى اعجابه بكتاب تين لكنه اضاف بان تين لم يتوصل إلى اكتشاف ما هو جوهري في طبيعة الشعر واضاف بان الاعمال الأدبية ليست سجلات تارخية وعلى أية حال فان تين يقول بالاثر الحتمي للتربة والمناخ في انتاج الأديب لكنه لا يقول بحتمية الاثر الاجتماعي اي لا يتحدث عن أثر العلاقات الاجتماعية و بنية المجتمع في الانتاج الأدبي . كما أن الأدب عنده صورة للبيئة لكن الادب لا دور له بعد ذلك في هذه البيئة . وربما كان هيبوليت تين اسير الفلسفة التي استندت إليها المدرسة الطبيعية والتي عرفت الانسان على لسان رائدها اميل زولا » بوصفه حيوانا سلبيا ، حيوانا خلقته الوراثة والبيئة ولا قدرة له على الخلاص من قدره

المحتوم فالانسان ليس محركا وانما هو يتلقى الافعال دون أن يكون قادرا على القيام برد الفعل .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت محاولة أخرى لتفسير الفن على اسس جديدة وقد اثارت اهتمام النقاد والمفكرين ، لكنها لم تخرج عن اطار الفلسفة المثالية شأنها شأن محاولة تين . هذه المحاولة قام بها أديب فاقت شهرته حدود بلاده ، واحتلت اعماله الأدبية مكانة مرموقة في مسار الادب العالمي ، إنه (ليوتو لستوي) الذي حاول في كتابه « ما الفن ؟» أن يكون داعية إلى فن يسعد الجماهير الفقيرة على وجه الخصوص . لقد آمن بان العلم والفن أداتان لتقدم الانسانية ، وراى بان الشعور الديني هو أساس الفن العظيم دون أن يعني هذا التعصب الديني ، وقد رفض تولستوي الكثير من روائع الفن العالمي ولم يستثن بعض اعماله من الرفض مثل (الحرب والسلام ، وآنا كارنينا) بحجة أنه كان قد كتب هذه الأعمال في جو ارستقراطي فاسد ملوث و بانها كتبت للارستقراطية كذلك . لقد أهتم تولستوي بالعلاقة بين الأدب والقراء ورأى أن وظيفة الفن هي أن ينقل احساس الفنان الى المتلقي ، فمهمة الفن مهمة توصيلية ، اي ايصال انفعال الفنان الى المتلقين وبالتحديد الى كل الناس البسطاء وإن لم يستطع أن يفعل ذلك فلا يعد فنا . ومع أن تولستوي ينطلق - على ما يبدو - في تنظيره للفن من هدف نبيل يتمثل في العمل على اسعاد كل الناس ، لا أن يكون الفن محصورا في فئة بعينها ، فان آراءه أيضا تنفي أن يكون للفن علاقة بالواقع الاجتماعي لأن هدفه فقط هو أن يوصل احساس.

لقد حظيت آراء تين وتولستوي باهتمام كبير الى حد جعل البعض يطلق على آراء تين « نظرية تين في الجنس والبيئة والزمن » وعلى آراء تولستوي نظرية العدوى)، وقد أثرت آراء تين تاثيرا واسعا في الدراسات الأدبية والنقدية ووصل تأثيرها الى نقدنا العربي الحديث حيث تجلى في بعض كتابات الدكتور طه حسين ، وقد ساهمت في ايجاد تصورات جديدة للادب وفي انشاء مناهج نقدية تدرس

الظاهرة الأدبية ومدى تأثرها بالبيئة ، وعلى أية حال فان هذه الآراء تعبر عن الالتفات إلى الصلة بين الظاهرة الأدبية والمجتمع لكنها لم تتوصل إلى ادراك علاقة التأثير والتأثر بين الأدب والمجتمع أو الى ادراك تناقضات المجتمع وعلاقاته ، وهو ما أدى إلى جعل المجتمع كيانا مبهما يتصف بتجانس وهمي ووحدة وهمية أيضا وهو ما يدل مرة أخرى استنادها إلى الفكر المثالي .

نظرية الانعكاس :

خلافا للنظريات الثلاث (المحاكاة - التعبير - الخلق) وراء تين ، استندت نظرية الانعكاس في تفسير الادب نشأة وماهية ووظيفة إلى الفلسفة الواقعية المادية ، هذه الفلسفة التي ترى بان الوجود الاجتماعي اسبق في الظهور من وجود الوعي بل أن اشكال الوجود الاجتماعي هي التي تحدد اشكال الوعي ، وقد استطاعت نظرية الانعكاس آن تقدم مفاهيم جديدة تماما عن نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته ، ولعلها اكثر النظريات حيوية وقدرة على الاستمرار بفضل منهجها الذي يتسم بالحركة . فبدلا من أن يضعف صوت انصارها و يقل عددهم كما هو شأن النظريات السابقة . نجد عكس ذلك اذ يزداد عدد أنصارها محاولين بين الفترة والأخرى أن يطوروا من بعض قضاياها أو مفاهمها وهو الأمر الذي يجعلها متجددة واكثر

خصوبة ، ولم تتميز نظرية الانعكاس بهذا فحسب بل اضافة الى ما تقدم فانها تتميز عن سائر النظريات بكونها لم تركز على جانب واحد من جوانب الظاهرة الأدبية (ركزت نظرية المحاكاة على زاوية المتلقي ، واهتمت نظرية التعبير بزاوية المبدع ، ونظرية الخلق بزاوية العمل أو النص الأدبي) وانما تناولتها من كافة جوانبها .

ولعل استنادها إلى الفلسفة الواقعية المادية قد جعل منهجها مختلفا تماما. فلم تعتمد على الوصف والتأمل بل اعتمدت على وضع الفروض والاستقراء ودراسة تاريخ الفنون العالمية، وحاولت أن تفسر وتعلل الظاهرة الأدبية باعتبارها جزءا من الظاهرة الثقافية عامة. مع الاهتمام بخصوصيتها واستقلاليتها النسبية عن بقية أنساق المعرفة والعلوم الانسانية .

وترى الفلسفة الواقعية المادية - وهي الأساس الفلسفي لنظرية الانعكاس كما قلنا - أن الواقع المادي اي علاقات الانتاج وقوى الانتاج (وهي ما تسميه بالبناء التحتي) تولد وعيا محددة هذا الوعي يضم الثقافة والفلسفة والقوانين والدساتير والفكر والفن (وهو ما تسميه بالبناء الفوقي) . وترى ان اي تغير في البناء التحتي يستتبع تغيرا في البناء الفوقي . أي أن التغير في البناء الاقتصادي والاجتماعي يؤدي الى تغير في شكل الوعي أو مجمل البناء الفوقي . غير أن العلاقة بين البناءين علاقة جدلية بمعني أن الوعي أو البناء الفوقي يعود فيؤثر في البناء التحتي من خلال تثبيته أو تحويره أو تعديله أو تغييره . ومع أنها تؤكد بان لكل منهما استقلالية نسبية فانها تؤكد كذلك الاستقلالية النسبية لكل فرع أو نسق من فروع البناء الفوقي (كالفن والفلسفة والسياسة) اذ لكل فرع قوانينه الخاصة به ، ويمكن أن تمثل على العلاقة بين البناءين التحتي والفوقي بانتقال المجتمع من العصر الاقطاعي إلى العصر البرجوازي حيث تغيرت أشكال الوعي والقيم والمفاهيم الفلسفية والأدبية والفنية .. الخ. . فكل تغير إذن في علاقات الانتاج أو في البناء الاقتصادي الاجتماعي يستتبع بالضرورة تغيرا في الرؤية لمفهوم المجتمع ، والانسان واللغة ، والأدب والقيم ... الخ وهو ما يؤدي بالضرورة إلى تغير في الأشكال الأدبية من حيث الموضوعات والاساليب والاهداف ، وهذا يعني أن الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي . لكنه لا يعني في الوقت ذاته أن الأدب مجرد تابع ومتلق للظروف الخارجية لأنه ظاهرة متطورة اي تؤثر وتتأثر بالعلاقات الاجتماعية مثلما يؤثر البناء الفوقي (بعد استقراره) في تثبيت أو تحوير أو هدم البناء التحتي.

وبما أن المجتمع ليس كلا متجانسة فاننا نلمس في المجتمع ثقافتين ، ثقافة سائدة هي ثقافة الطبقة السائدة والمسيطرة على المجتمع ، وعناصر ثقافة أخرى تبنيها الطبقات المقهورة والمستغلة والمسيطر عليها ، وعلى هذا الأساس فان للفن والادب بعدا طبقيا اجتماعيا ، اي هناك اعمال أدبية ممتثلة للواقع الاجتماعي وتدعو للتصالح معه ، واعمال اخرى تطمح إلى هدم العلاقات القائمة لبناء مجتمع أفضل . أي أن بعض الاعمال تنطوي على رؤية ممتثلة تصالحية وأخرى تنطوي على رؤية تجاوزية وهنا يصبح الانعكاس انواعا ، فهناك انعكاس طبيعي (مزيف) وانعكاس واقعي (صادق) على حد تعبير لوكاش ، وهذا يدل بان المقولة التي تستند إليها نظرية الانعكاس - والتي استمدت اسمها منها - والتي تتمثل في أن الادب انعكاس للواقع الاجتماعي ، تعني أن الانعكاس ليس آلية ولا متوازية ولا بسيطا وانما هو عملية متداخلة معقدة مركبة . وهذا يعني بان كل الاعمال الأدبية لها صلة بالواقع لكنها ليست كلها واقعية » ، وهنا لابد من الوقوف عند قضية هامة تتصل بمفهوم الالتزام أو بمفهوم الواقعية إذ كثيرا ما تعرضا للفهم الخاطئ والتشويه سواء من قبل انصارهما أو خصومهما

فالمفاهيم الشائعة خطأ أن العمل الواقعي هو الذي يصور أحداثا وقعت بالفعل وان الالتزام يعني مطالبة الأديب بتصوير الاحداث والمشاكل الاجتماعية أي أن يوقف ادبه على تصوير الهموم الاجتماعية وان يتخلى عن همومه الذاتية ، و بهذا المعنى فان الالتزام يتوازى ويتداخل مع النقد الأخلاقي أي يصبح قضية أخلاقية فالناقد الاخلاقي يطالب الأديب بالالتزام بالأخلاق ، والناقد الواقعي يطالب الاديب بالالتزام بتصوير الهموم الاجتماعية ، وهنا يصبح مفهوم الالتزام - بالفعل - بعيدا عن اطار النظرية وفلسفة الفن ، ولكن بناء على ما قلناه سابقا فان مفهوم الالتزام ومفهوم الواقعية يصبح لهما معنى آخر يتصل بل ينبع من فلسفة الفن ، هذا المعنى يتمثل في أن الالتزام وتصوير الواقع هو أمر يرتقي بالعمل الأدبي من الناحية الفنية وبعبارة أخرى نستطيع القول بانه كلما انغرس الأديب بتصوير العلاقات الاجتماعية من الداخل حقق لأدبه ارتقاء وسموا فنيا وبالمقابل فان تصوير الهامشي والسطحي أمر يهبط بالأدب والفن - واحسب أن مفهوم الالتزام بهذا المعنى يلق باضواء ساطعة على مسألتي التشاؤم والتفاؤل كما قد يوضح اكثر معنى الانعكاس الطبيعي والانعكاس الواقعي .

وبما أن نشأة الأدب هي انعكاس للواقع الاجتماعي فان طبيعة الأدب لابد وان ترتبط بذلك الواقع الذي انتج فيه . ومن خلال استقراء تاريخ الفنون الأدبية العالمية يرى اصحاب نظرية الانعكاس أن الكلاسيكية نتجت عن العصر الاقطاعي وأن الرومانسية ارتبطت بالثورة البرجوازية ، وان التقدم العلمي والتكنولوجي ولد المدرسة الطبيعية ، و بدخول الطبقة العاملة على مسرح التاريخ ظهرت الواقعية الاشتراكية ، لذلك كله فان الأدب صورة للواقع الاجتماعي الذي انتجه أو انتج فيه وان صورة الادب تتغير بتغير صورة المجتمع .

ولعل كل ما تقدم يثير أسئلة متعددة مثل : أليس الادب استخدام خاص اللغة ؟ وما هو دور الفرد المبدع الأديب الذي يتميز عن غيره من الناس ؟ ثم اذا وجد عدة أدباء في مرحلة اجتماعية واحدة وربما في طبقة اجتماعية واحدة فهل يفرض هذا تماثلا في انتاجهم الادبي ؟ ثم هل يعني تقدم المجتمع تقدما في الاشكال الأدبية ؟ وهل تفرض انتكاسة المجتمع انتكاسة في الأشكال الأدبية ؟ وهل الاعمال الأدبية الحديثة اكثر فنية من الأعمال التي جاءت انعكاس لمراحل اجتماعية قديمة ؟ ولماذا تستمر فنية الاعمال القديمة ؟.

مثل هذه الاسئلة والتساؤلات لم يغفلها أصحاب نظرية الانعكاس بل حاولوا الإجابة عليها .

إن التغيرات الاجتماعية تفرض تبدلا في الرؤية والمواقف والمفاهيم وكذلك في الأشكال واللغة، والأديب عضو في جماعة أنه كائن طبق أو مجموعة من العلاقات الاجتماعية في التحليل الأخير . اذ لا وجود للفرد المطلق لأن الفرد خارج المجتمع هو خارج نفسه ، والاديب لا يبدأ من الصفر فهناك مواد سابقة مثل العادات والتقاليد والموروث ودرجة التطور الاجتماعي والادبي . كل هذه الأمور تؤثر في الأديب اي انه يتأثر بالجماعة أو الطبقة التي ينتمي اليها كما يؤثر فيها ثم انه يقدم انتاجه إليها ، والأديب حين يكتب ويبدع فلكي يعبر عن علاقته بالواقع أو بالمجتمع أو بالعالم ، انه يشعر أن هناك خللا ما في تلك العلاقة ، وهذا ما يدفعه إلى تجسيد رؤية جديدة للمجتمع أو العالم متوسلا شكلا من أشكال الأدب ، فالأديب هو الأداة التي يعبر المجتمع عن نفسه من خلالها أو أداة الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الأديب .

صحيح أن الاديب هو الذي ينتج العمل الأدبي ولكن لولا المجتمع لما استطاع أن يفعل . إن الابداع فعالية اجتماعية وإن بدا فرديا للوهلة الأولى - وفي اللحظة التي يكتب بها ليتصل بالاخرين ينتقل فعله من الاطار الجماعي أو الاجتماعي ، فهو حتى لو كان معزولا في حجرة و إلا أن يفكر في الآخرين ويحاورهم . بل إن حواره الداخلي مع ذاته يحاول أن يكتبه ويتوجه به إلى الاخرين . إن العمل الأدبي نتيجة جهد فردى و حصيلته الفكرية والشعورية مستمدة من علاقة الأديب بالمجتمع الذي يعيش في

وطالما أن الأديب عضو في جماعة يؤثر فيها ويتأثر بها ، وطالما انه يكتب لكي يعبر عن علاقته بالمجتمع فان مشكلته الخاصة جزء من مشكلة الجامعة بالتحليل الأخير . فهو يمزج الخاص بالعام او الفردي بالجماعي لكي حق التجربته الأدبية شرطا أساسيا من شروط نجاحها يتمثل في التواصل مع القراء

وحتى على صعيد اللغة نجد أن الأديب يتعامل مع ظاهرة اجتماعية ، واسلوبه الخاص نتاج للتفاعل مع اللغة ، وهذا التفاعل يتم عبر صراع ومعاناة من الطرفين .. فالاديب يجهد في كبح جماح اللغة وتطويعها لتخدم له هدفا محددا ، والاديب أيا كان عضو في جماعة ، هذه الجماعة (لا الفرد ولا حتى مجامع اللغة) هي خالقة اللغة والمفردات والرموز لذلك لا يمكن أن يتأتي له أن يبني شكلا أدبيا (لغويا) خارجا عن جماعته ، فالاديب مقيد بمستوى لغوى معين يحدده الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمرحلة التي يعيش فيها ، والاديب بلا شك يستخدم اللغة المألوفة (لغة الجماعة) بطريقة خاصة ، ولكن حتى هذا الاستخدام الخاص للغة - اي الصياغة والتشكيل - يحدد برؤية الأديب للغة ووظيفتها ونوعية الجمهور الذي يخاطبه ، والتي تعد - اي الرؤية - في التحليل الأخير نتاجا لواقع ثقافي طبقي سياسي اقتصادي ينتمي إليه الأديب ، و بالطبع يمكن القول هنا بان الأديب العبقري هو الأقدر على تشكيل اللغة بما يواتي هدفه، وهو هدف اجتماعي ايضا .

من كل هذا يتضح أن الأسلوب أو الشكل له دلالة اجتماعية، ولاشك بان مضمون العمل الأدبي هو كذلك نتيجة للتفاعل بين ذات الأديب والظواهر الاجتماعية أو الحياتية العامة. فضمون العمل الأدبي وشكله - اذا جاز التعبير - نتيجة للتفاعل الخلاق بين الفرد والجماعة هذه العلاقة الجدلية تنعكس على العمل الأدبي من حيث هو كل موحد فتصبح القصيدة أو الرواية شكلا ومضمونة معبرة عن موقف الاديب من المجتمع والعالم.

غير أن تواجد عدة أدباء ينتمون إلى طبقة اجتماعية واحدة ويعيشون في ذات المرحلة لا يفرض بالضرورة تماثلا في انتاجهم الادبي وإن كان المرء يستطيع أن يستنبط ملامح مشتركة بين الأعمال الأدبية التي تنتج في مرحلة اجتماعية محددة . كما أن تقدم المجتمع لا يفرض بالضرورة تقدما بالأشكال الأدبية ، ولا انتكاسة المجتمع تؤدي بالضرورة إلى انتكاسة في الشكل الأدبي لأن العلاقة بين الأدب والمجتمع ليست الية ولا متوازية - كما تقدم - بل متداخلة ومعقدة .

والأعمال الأدبية الحديثة لا تعني أنها اكثر فنية من الأعمال القديمة لأن تطور الأدب يتباين عن تطور بقية العلوم الطبيعية والانسانية وهذا يعود إلى طبيعة الادب ذاته . أما أن بعض الأعمال الأدبية القديمة. لاتزال تمتع قراءها وتستمر فنيتها الى ايامنا فهذا يعود إلى أن هذه الأعمال الأدبية قد استطاعت أن تعكس ما هو جوهري في مرحلتها ، والجوهري يعني

تصوير الانسان في لحظة من لحظات تطوره ونزوعه نحو مزيد من التحرر وتاسيس واقع أفضل ، وهو ما يؤدي إلى تصوير جذر إنساني مشترك في القديم والحديث وهو ما يجعلنا نستمتع بالاعمال الأدبية القديمة حتى اليوم ، وبعبارة أخرى فان هذه الأعمال، قد تضمنت دلالة بالواقع الاجتماعي المحلى ، ودلالة ثابتة تتعلق بالدلالة الانسانية العامة ، والفن الفقير هو الذي يتضمن الدلالة التاريخية النسبية . أما الأعمال الأدبية الخالدة نسبية تتعلق فهي الأعمال التي تتضمن الدلالتين لكن نجاحها في صياغة الثابت انما يتحدد

بقدرتها على صياغة النسبي التاريخي : اي قدرتها على استخلاص العام من الخاص او الثابت من النسبي والنموذجي من العارض ، وهذا هو الأساس إلى بين المحلية والعالمية في الأدب .

ومن المفيد أن تذكر ان موقف نظرية الانعكاس من القارئيختلف عن موقف النظريات الثلاث ، فنظرية المحاكاة ترى أن الأدب يطهر عواطف وترى نظرية التعبير أن مهمة الأدب هي آثارة انفعالات وعواطف اما نظرية الخلق فترى أن الأدب يسلي القارئ و يخلق لديه احساسا بالمتعة أو بالجمال الخالص . ومن كل هذا يتبين أن القارئ مجرد متلق للعمل اما نظرية الانعكاس فانها تنظر للقارئ كمتلق ومشارك بشكل غير مباشر الابداع الأدبي .

فالاديب حين يكتب - و بديهي أنه لا يكتب لنفسه - فانه يكتب إلى حين من القراء له مستواه العلمي والثقافي ووعيه الفني ولذلك فانه حين يكتب لابد أن يأخذ بعين الاعتبار كل هذه القضايا ، وهذا يؤثر في تشكيل وصياغة العمل الأدبي ، فالاديب الذي يتوجه بكتابته الى الجمهور العريض غير المتجانس ثقافيا وعلميا لا يمكن أن يكتب باسلوب معقد غامض ملغز ، بل يفرض عليه ذلك الجمهور أن يخاطبه باسلوب يتسم بالبساطة والوضوح دون أن يعني ذلك اللجوء إلى المباشرة والتقريرية ، فالبساطة لا تتنافى مع الجمال ولا تحط من قيمة العمل ، وفي الجهة المقابلة يمكن القول بان الأديب الذي يتوجه بادبه إلى النخبة المثقفة أو الطليعة يكتب باسلوب آخر ، ومع أن هذه القضية تبدو معقدة إذ أن الكاتب الملتزم قد يهدف إلى الارتقاء بذوق الجمهور العريض ووعيه الفني والثقافي فيكتب باسلوب يثير القراء ويدفعهم إلى مزيد من القراءة الواعية ، فان ما يعنينا هنا جمهور القراء ليس سلبيا أي ليس مجرد متلق للاعمال وانما له حضور غير مباشر او مشاركة غير مباشرة ، فالجمهور ونوعيته يتدخل - من ضمن عوامل أخرى كثيرة - في تشكيل الأعمال الأدبية وهو ما يؤكد أن عملية الابداع الادبي فعالية اجتماعية .

وحين نتحدث عن وظيفة الأدب في ضوء نظرية الانعكاس ينبغي أن نكون على دراية بان هذه النظرية ترى أن الابداع الادبي فعالية اجتماعية ، وهذا يعني أن الأدب تجربة انسانية ، فالاديب يهدف من وراء تجسيد رؤيته بشكل جمالي لالإظهار براعته الفنية أو مهارته اللغوية أو استعراض ثقافته - بل لكي نشاركه التجربة بشكل يؤدي إلى تغيير وجهة نظرنا - كقراء - أو تعديلها أو تأكيد ما كنا نؤمن به ، فالعمل الأدبي قد يغير موقف بعض القراء تجاه المجتمع أو الحياة أو العالم ، وقد يعدل أو يؤكد مواقف آخرين ، وحصيلة كل ذلك خلق نوع من الاتساق الفكري والشعوري في الموقف الجماعي بطريقة غير مباشرة اي من خلال الايحاء والايماء .

فالانسجام الفكري والشعوري بين أفراد المجتمع أو الطبقة الاجتماعية هو الجدوى الحقيقية للأدب .

فالادب يخاطب العقل والشعور ويهدف إلى شحذ قوة الادراك ، اي إلى استثارة الوعي وتنويره وحفزه ، والى فهم العالم أكثر ، والى مساعدة الناس على ادراك واقعهم الاجتماعي وتغييره .

مع نظرية الانعكاس ترى أن وظيفة الادب تتغير من عصر إلى عصر ومن مرحلة اجتماعية إلى أخرى فانها تؤكد بان للأدب الناضج وظيفته الدائمة التي تتمثل في تحريك الانسان بكليته فكره وشعوره ، عقله واحاسيسه لكي يمكنه من المساهمة في تغيير واقعه الاجتماعي نحو الأفضل .

ملاحظات عامة على نظرية الانعكاس :

يتضح من هذا العرض الموجز لنظرية الانعكاس أنها تستند إلى الفلسفة الواقعية المادية وهي بهذا تقف مضادة للنظريات الأدبية الثلاث سواء في رؤيتها لنشأة الأدب أو طبيعته أو وظيفته . وقد خاض أعلامها صراع فكريا وفلسفيا ضد اصحاب فكرة الفن الخالص والجمال الخالص وراوا ان هؤلاء يحطون من اشان الأدب ودوره الهام ، كما يسخفون من شان المبدع الاديب لأنهم ينظرون إلى أدبه على أنه نوع من اللعب والزخرفة والتشكيل الخالي من اي مضمون وقد رفض اعلام نظرية الانعكاس فكرة الفن الخالص والجمال الناعي . رفضوا الادب الذاتي والفردي ، والأهم من هذا وذاك أنهم رفضوا العواطف والانفعالات - فحسب - المحور الرئيسي للادب ، مع أنهم لم يغفلوا أثرها وأهميتها في تشكيل الأعمال الأدبية .

ولم يقتصر رفضهم لفكرة الشيء في ذاته أو فكرة الفرد المطلق والفن المطلق والوظيفة المطلقة للأدب بل رفضوا ايضا فكرة المعايير النقدية المطلقة، وقال المعايير النقدية ينبغي أن تشتق من واقع المرحلة الاجتماعية والثقافية التى ا الأدب .

ان اعلام نظرية الانعكاس يشددون على الدلالة الاجتماعية للاعمال الأدبية والفنية وعلى الصلة بين الادب والمجتمع ، غير أن مدى العلاقة بين الأدب والمجتمع وشكل هذه العلاقة قد ظل ومازال مثار نقاش واسع بين اعلام هذه النظرية وخصومها ، وبين اعلامها فيما بينهم على نحو ما نرى في كتابات بليخانوف ولوكاش وأرنست نيشر وغيرهم .